قسم العلوم الإنسانية جامعة محمد العربي بن مهيدي أم البواقي

السنة الأولى ماستر تاريخ مقيـــاس : النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي

المحاضرة الأولى : الإطار الجغرافي والبشري للموارد الاقتصادية

مقدمة

يمثل الغرب الإسلامي (الذي يشمل بلاد المغرب والأندلس) وحدة جغرافية متميزة أهّلتها لتكون قاطرة النشاط الاقتصادي في العصر الوسيط. لم تكن هذه المنطقة مجرد رقعة امتداد للدولة الإسلامية، بل كانت مجالاً حيوياً تتفاعل فيه الموارد الطبيعية المتنوعة مع العنصر البشري النشط. تهدف هذه المحاضرة إلى تفكيك البنية التحتية للنشاط الحرفي والتجاري من خلال استعراض الجغرافيا الاقتصادية وتوزيع الموارد.

أولاً: الحتمية الجغرافية: الموقع والمجال (توسيع)

لا يمكن فهم القوة الاقتصادية للغرب الإسلامي بمعزل عن هندسته الجغرافية الفريدة؛ فهو لم يكن مجرد إقليم طرفي، بل تمتع بوضعية **المفصل الجغرافي** الذي يربط بين عالمين متباينين: عالم المتوسط بمناخه المعتدل ومنظومته التجارية البحرية، وعالم الصحراء الكبرى بامتداداتها نحو أفريقيا جنوب الصحراء.

1. الموقع الاستراتيجي المزدوج واقتصاد الوساطة

خلق هذا الموقع ما يُعرف بـ **الوساطة الفاعلة**؛ حيث لم يكتفِ الغرب الإسلامي بنقل السلع، بل أعاد تشكيل الخارطة التجارية للعصر الوسيط.

- **الجسر المائي (المتوسط والأطلسي):** جعلت الواجهة المتوسطية من موانئ الأندلس والمغرب (مثل المرية، بجاية، وتونس) نقاط اتصال حيوية مع التجارة الأوروبية والمشرقية.

- **الجسر البري (العمق الصحراوي):** مثّل الغرب الإسلامي البوابة الشمالية الوحيدة لـ بلاد التبر (الذهب)، مما جعل مدناً مثل سجلماسة وتلمسان تعمل كمراكز صرافة دولية تتحكم في تدفق المعدن النفيس إلى العالم الإسلامي وأوروبا.

2. الثراء الجغرافي في وصف الإدريسي (تحليل النص)

عندما يصف **الشريف الإدريسي** الأندلس بأنها شامية، يمانية، هندية، فهو لا يسوق تشبيهاً أدبياً فحسب، بل يقدم تقريراً عن **التنوع البيئي المولد للثروة**.

- **شامية في طيب هوائها:** إشارة إلى الملاءمة للزراعات الكثيفة ونقل الغروس المشرقية (الثورة الزراعية الأندلسية).
- **يمانية وهندية:** إشارة إلى القدرة على إنتاج المحاصيل النقدية (القطن، قصب السكر، النباتات العطرية) التي كانت حكراً على المناطق الاستوائية، مما وفر مواد خاماً للصناعات التحويلية المحلية.

3. الأقاليم الاقتصادية وتكامل الإنتاج

أدى هذا التنوع التضاريسي إلى ظهور تخصص إقليمي أدى بدوره إلى تنشيط حركة التجارة الداخلية:

- **الأقاليم الجبلية (مخازن الموارد):** وفرت جبال الأطلس والسييرا نيفادا المعادن (حديد، نحاس، رصاص) والأخشاب الضرورية لصناعة السفن، فضلاً عن كونها مناطق لرعي الأغنام التي غذت صناعة المنسوجات والجلود.
- **السهول والأحواض النهرية:** بفضل الأنهار الغزار التي ذكرها الإدريسي (مثل الوادي الكبير وملوية)، تحولت هذه المناطق إلى ورشات لإنتاج الزيوت، الحبوب، والكتان.
- **النطاق الصحراوي:** لم يكن عائقاً، بل كان بحرًا بريًا يوفر الملح (المادة الحافظة والعملة التبادلية) والتمور، ويمد المدن بالذهب والعاج عبر القوافل.

4. الانعكاس على اقتصاد الوساطة

إن هذا التكامل بين الجبل والسهل والصحراء جعل من الغرب الإسلامي وحدة اقتصادية قادرة على تحقيق **الاكتفاء الذاتي** وتصدير الفائض. فالمواد الخام الجبلية تُصنع في الحواضر السهلية (مثل فاس وقرطبة)، ثم تُصدر عبر الموانئ أو القوافل الصحراوية، مما حول المنطقة إلى مركز ثقل مالي لا يضاهى في العصر الوسيط.

الهوامش (وفق نظام شيكاغو):

1. الشريف الإدريسي، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق* (بيروت: عالم الكتب، 1409هـ)، ج 2، ص 537-538.
2. انظر للتوسع في مفهوم اقتصاد الوساطة: محمد المختار الحامدي، *الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الغرب الإسلامي في العصر الوسيط* (تونس: دار الغرب الإسلامي، 2008)، ص 112-115.

ثانياً: جغرافيا الموارد المعدنية (خزان الثروة الفلزية)

مثّل الغرب الإسلامي في العصر الوسيط مستودع المعادن للعالم المتوسطي، حيث اجتمعت فيه ثروات باطنية لم تكن متوفرة في المشرق بنفس الكثافة، مما جعل المنطقة مركزاً عالمياً لسك العملة والصناعات الدقيقة.

.1الذهب: معدن التبر والسيادة المالية

لم يكن الذهب متوفراً كمناجم سطحية بكثرة في الشمال، بل كان الغرب الإسلامي يسيطر على **جغرافيا التدفق**.

- **سجلماسة وأودغشت :**شكلتا نقطتي الارتكاز في تجارة الذهب القادم من أعماق إفريقيا (بلاد غانة ومالي). كان الذهب يُنقل على شكل تبر (غبار الذهب) ليتم سبكه وتحويله إلى دنانير مرابطية وموحدية ذاعت شهرتها شرقاً وغرباً.

- **مناجم وادي سوس :**يذكر الجغرافيون وجود مناجم ذهب محلية في جنوب المغرب، وإن كانت أقل غزارة من ذهب السودان، إلا أنها عززت المخزون الاستراتيجي للدولة.

.2الفضة والزئبق: التميز الأندلسي

كانت الأندلس هي المورد الرئيس للفضة والزئبق في العالم الإسلامي، مما جعلها مركزاً لصناعة الحلي والعملات الفضية (الدراهم).

- **معدن الزئبق (المدور :(**انفردت الأندلس بمنجم المدور(Almadén) ، وهو أضخم منجم زئبق في التاريخ الوسيط. كان الزئبق مادة أساسية في عمليات فصل الذهب والفضة وتذهيب المعادن. يذكر الإدريسي أن هذا المنجم كان يعمل فيه أكثر من ألف عامل تحت الأرض.
- **فضة شلب وقرطبة :**اشتهرت مناطق غرب الأندلس (البرتغال الحالية) بإنتاج فضة عالية النقاء، مما ساهم في استقرار النظام النقدي الفضي الأموي.

.3الحديد والنحاس: عصب الصناعات الحربية والحرفية

- **الحديد :**تركزت مناجمه في جبال الأطلس المغربي (منطقة تلمسان وجبال بني يزناسن) وفي شرق الأندلس. كان هذا الحديد المادة الخام لصناعة الأسلحة (السيوف الأندلسية والدمشقية المصنعة محلياً) والدروع وأدوات الفلاحة.
- **النحاس :**برزت منطقة سوس في المغرب الأقصى كأهم مصدر للنحاس، حيث كانت تُموّن مصانع الأواني والتحف المعدنية في مراكش وفاس وتلمسان.

.4الملح: الذهب الأبيض

رغم أنه ليس معدناً نفيسًا بالمفهوم التقليدي، إلا أن الملح كان يمتلك قيمة استراتيجية توازي الذهب.

- **سبخات الصحراء :**مثل تغازة، حيث كان الملح يُستخرج على شكل قوالب ويُقايض بوزنه ذهباً في جنوب الصحراء، مما خلق دورة اقتصادية فريدة جعلت من تجار الغرب الإسلامي أثرى تجار العالم في ذلك الوقت.

خاتمة المحاضرة

نخلص إلى أن النشاط الحرفي والتجاري في الغرب الإسلامي لم ينشأ من فراغ، بل كان استجابة ذكية لبيئة غنية بالموارد. لقد نجح إنسان المنطقة في تحويل المعطى الجغرافي الخام (حديد، صوف، خشب) إلى منتج حضاري مصنع (سلاح، كساء، سفن)، مدعوماً بشبكة من المسالك التجارية وفكر اقتصادي يشجع على الكسب والعمل.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر الأولية(Primary Sources)

1. الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد .**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** .مجلد 2. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2002.
2. البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز .**المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب** . تحقيق دي سلان. باريس: المطبعة الحكومية، 1965.
3. ابن خلدون، عبد الرحمن .**المقدمة** .تحقيق عبد السلام الشدادي. الدار البيضاء: خزانة ابن خلدون، بيت الفنون والعلوم والآداب، 2005.

ثانياً: المراجع العربية(Secondary Sources)

4. مؤنس، حسين .**تاريخ المغرب وحضارته** .بيروت: العصر الحديث للنشر والتوزيع، 1992.

5. الحامدي، محمد المختار .**الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الغرب الإسلامي في العصر الوسيط** .تونس: دار الغرب الإسلامي، 2008.

الهوامش(Footnotes)

1. أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*)القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2002)، ج 2، ص 538.
2. أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري، *المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب*، تحقيق دي سلان (باريس: المطبعة الحكومية، 1965)، ص 155.
3. عبد الرحمن ابن خلدون، *المقدمة*، تحقيق عبد السلام الشدادي (الدار البيضاء: بيت الفنون والعلوم والآداب، 2005)، ج 2، ص 241.